# استنوق الجمل(١)

قال الشَّابُّ : لا قِبل لي بهذا التَّعب المعني الَّذي يسمُّونه : « الزَّواج » ، فما هو إلا بيتٌ ثقلُه على شيئين : على الأرض ، وعلى نفسي ؛ وامرأةٌ همُّها على موضعين في دارها ، وفي قلبي ؛ وما هو إلا أطفالٌ يُلزمونني عملَ الأيدي الكثيرة من حيث لا أملك إلا يدين اثنتين ، وأتحمَّل فيهم رَهقاً شديداً كأنَّما أبنيهم بأيَّامي ، وأجمعُ هموم رؤوسهم كلّها في رأسٍ واحدٍ هو رأسي أنا !

يولد كلٌّ منهم بمعِدة تَهضم لتوِّها ، وساعتها ، ثمَّ لا شيء معها من يدٍ ، أو رجلٍ ، أو عقلٍ إلا هو عاجزٌ لا يستقلُّ ، مُتخاذلٌ لا يُطيق ، ولا يقدر .

قال : وإذا كان أوَّلُ الزَّواج ـ أي : عسله ، وحَلواه ـ أيَّـةَ امْرأَةٍ تُذهِب عزوبتي ؛ فأنا ، وأمثالي ما نزال في عَسلٍ وحلوى . . . ولكلِّ وقتٍ زواجٌ ، ولكلِّ عصرٍ أفكارٌ ، وما أسخفَ اللَّياليَ ؛ إذا هي ترادفتْ على ضرْبٍ واحدٍ من أحلامها ، فهذا يجعل النَّومَ حكماً بالسِّجن عشرَ ساعاتٍ . . . !

قال : وإذا أردت أن تستكشفَ القصَّةَ ؛ فاعلم أنَّنا نحن العُزَّابَ قومٌ كرجال الفنِّ : رذيلتهم فنِّيةٌ ، وفضيلتهم فنِّيَّة ؛ فتلك ، وهذه بسبيلٍ ؛ وكلُّ شيءٍ في الفنِّ هو لموضعه من الفنِّ ، لا من غيره ، فإذا قلتَ : هذا خالٍ من الفضيلة ، عارٍ من الأدب ، وعِبْتَ الفنَّ لذلك ؛ فما هو إلا كَعَيْبك وجهَ المرأة الجميلة لأنَّه خال من لحيةٍ . . . هاتِ الظَّلامَ ، وسوادَه ، فإنَّه لونٌ كالنُّور ، وإشراقُه ، لا بدَّ من كليهما ؛ إذ المعنى الفنِّيُّ إنَّما يكون في تناسُب الأشياء ، لا في الأشياءِ ذاتها ؛ ويدُ الفنيِّ كيَدِ الغنيِّ : هذه لا يقع فيها الذَّهب إلا ليتعدَّد ، ثمَّ يتعدَّد ، وتلك لا تقع فيها المرأة إلا لتتعدَّد ، ثمَّ تتعدَّد ، وفي كلِّ دينارٍ قوَّةٌ جديدةٌ ، وفي كلِّ امرأةٍ فنٌّ جديدٌ . . . !

قال : ومذهبنا في الحياة أن نستمتعَ بها ضُروباً ، وأفانِينَ ، من أطاق أنواعاً لم

---

(١) انظر « عمله في الرسالة » من كتابنا « حياة الرافعي » . (س) .
قلت : استنوق الجمل : صار كالناقة . ويُضرب للرجل يكون في حديث ، أو صفة شيء ، ثم يخلطه بغيره ، وينتقل إليه . ويُراد به أيضاً : قَلْبُ الحقائق ادِّعاءً .

يقتصر على نوعين ، ومن قدَر على نوعين لم يرضَ الواحد ، ولو أنَّ زوجةً كانت من أشعَّةِ الكواكب أو من قطرات النَّدى ، لثقُل منها على حياتنا ما يثقل من الحديد والصَّوَّانِ ؛ إذ هي لا تلِد أشعةَ كواكبٍ ، ولا قطرات ندىً ، وحسب الجسد برأسٍ واحدٍ حمْلاً .

قال : ومَنِ الَّذي تعرضُ عليه الحياة سلامَها ، وتحيَّاتها ، وأشواقها في مثل رسالة غرام ، ثمَّ يدع هذا ، ويسألها غَضَبهَا ، وخصامَها ، ولَجَاجتَها في مثل قضيَّةٍ من قضايا المحاكم ، كلُّ ورقةٍ فيها تلد ورقةً . . . ؟

ثمَّ قال الشَّابُّ : لا تحسبنَّ : أنَّ المرأة هي السَّافرة عندنا ، ولكنَّ اللَّذة هي السَّافرة ؛ وما أحكمَ الشَّرع ! أقول لك وأنا محامٍ يقرِّر الحقيقة . ما أحكم الشرعَ الذي لم يُرَخِّصْ في كشف وجهِ المرأة إلا لضرورةٍ ؛ فإنَّ الواقعَ في الحياة أنَّ هذا الكشفَ كثيراً ما يكون كنقْب[1] اللِّص على ما وراء النَّقْب ؛ وإذا كُسِرَ ما فوق القُفل من الخِزانة المكتَنزِ فيها الذَّهبُ ، والجوهرُ ، فالبابُ الحديدُ كلُّه سخريةٌ ، وهُزُؤ من بَعدُ . . . !

* * *

هذه عقليةُ شابٍّ محامٍ طُوِيَ عقله على الكتب القانونيَّة ، وطُوي قلبُه على مثلها من غير القانونيَّة ؛ وليس يَمتَري[2] أحدٌ في أنَّها عقليَّةُ السَّواد من شبابِنا المثقَّف ؛ الَّذي لبِس الجلدَ الأوربيَّ . ومن البلاء على هذا الشَّرق : أنَّه ما برحَ يُناهِضُ المستعمرين ، ويُواثبُهم غافلاً عن معانيهم الاستعماريَّة الَّتي تُناهضه ، وتواثبه ، جاهلاً : **أنَّ أوربة تستعمرُ بالمذاهب العلميَّة كما تستعمرُ بالوسائل الحربيَّة ، وتسوق الأسطولَ ، والجيش ، والكتاب ، والأستاذ ، واللَّذة ، والاستمتاع ، والمرأة ، والحبَّ .**

ولو أن عدوّاً رماك بالنَّار ، فاستطارتْ في ثيابك ، أو متاعِك ؛ لما دخلكَ الشَّكُّ أن عدوَّك هو النَّار حتى تفرغ من أمرها ؛ **فكيف ـ لعمري ـ غَفل الشَّرقيُّون عن**

---

(١) « نَقْب » : نَقَبَ الحائطَ : ثَقَبَهُ ، وخَرَقَهُ ، وفتَح فيه ثُغْرة . والنَّقْب : الخَرْق في الجدار وغيره .

(٢) « يمتري » : يشكّ .

**أخلاقٍ ناريةٍ حمراءَ يأكلهم بها المستعمرون أكلاً ؛ كأنَّما يُنضجونهم عليها ، ليكونوا أسهلَ مَساغاً ، وألين أخذاً ، وأسرعَ في الهضم . . . !**

لم أفهم أنا من كلام صاحبنا الشَّابِّ ومعانيه إلا أنَّ أوربة في أعصابه ، وأمَّا مصرُ ، ونساؤها ، ورجالُها فعلى طَرَف لسانه ، لا تكون إلا صَيْحةً ، وليس بينه وبينها في الحياة عملٌ إلا من ناحية لذَّتِه بها ، لا من ناحية فائدتِها منه .

وتلك المعاني كلُّها مشتقٌّ بعضها من بعضٍ ، ومَرْجِعُها إلى أصلٍ واحدٍ ؛ كالأمراض التي تبتلي الجسمَ : يُمَهِّدُ شيءٌ منها لشيءٍ ، ما دامت طبيعةُ هذا الجسم زائغةً ، أو مختلَّةً ، أو متراجعةً إلى الضَّعف ؛ أو ذاهبةً إلى الموت .

وأولئك شبانٌ وقف بهم الشَّبابُ موقِفَ بلادةٍ ، فلا يخطو إلى الرُّجولة ، ولا يكملُ بنموه الاجتماعيِّ كما يكمل الرَّجلُ الوطنيُّ ؛ فمن ثَمَّ يكون خَوَّاراً[١] ، لا يستطيع أن يَحملِ أثقالاً مع أثقاله ؛ ويَستوطىء العجزَ ، والخُمولَ ؛ فلا يكون إلا قاعدَ الهمَّة ، رِخْوَ العزيمة ، قد استنام إلى أسباب عجزه ، وتخاذله ؛ ولا يكون في بعض الاعتبار إلا كالمريض ؛ يعيش بمرضه حَميلةً[٢] على ذويه ، ضُجعَةً[٣] لا يمشي ، نُوَمَةً[٤] لا ينتَهض ، مستريحاً لا يعمل .

وبهذه المَكْسَلةِ الاجتماعيَّة في الشُّبَّان ، يبدأ الشَّعبُ يتحوَّل من داخِله فينصرفُ عن فضائله ، ويتَّخذ في مكانها فضائلَ استعارةٍ يقلِّد فيها قوماً غيرَ قومه ، ويجلبُها لبيئةٍ غير بيئته ، ويَقسِرُها على أن تصلُح له ، وهي فسادٌ ، ويُكرهها على أن تنفعَه وهي ضرر ، وتلك حالةٌ يُغامِر فيها الشعبُ بكيانه فلا تلبثُ أن تصدَعَه ، وتُفرِّقه .

ولو أنَّ في السحاب مطراً ، وغيثاً ؛ لما كان له في كلِّ ساعةٍ لونٌ مصبوغٌ ، ولو أنَّ في الشَّباب ديناً ؛ لما صبغته تلك الأخلاقُ الفاسدة ؛ وما ذهابُ الحارس عن مكانٍ إلا دعوةٌ لِلُّصوص إليه ! وهل كان الدِّين إلا واجباتٍ ، وتبعاتٍ ، وقيوداً يراد من جميعها إعدادُ الإنسان لأمثالها في الاجتماع ، حتَّى يقرَّ في إنسانيَّته الصَّحيحةِ

---

(١) « خواراً » : ضعيفاً .

(٢) « حميلة » : هي المحمول .

(٣) « ضُجَعة » : هو الكسلان ، الكثير الاضطجاع .

(٤) « نُوَمة » : هو الكثير النوم .

على النَّحو الَّذي يصلح له منفرداً ، ويصلُح له مجتمعاً ، فليست الزَّوجة وحدها هي التي خَسرت الشَّابَّ ، بل خسره معها الوطنُ ، والدِّينُ والفضيلةُ جميعاً ، وبهذا انعكس وضعُه من الجماعة ، فوجب في رأيه أن تُسَخَّرَ الجماعة له ، وأن يستقلَّ هو بنفسه ؛ وبهذا العكس ، وهذا السُّقوط ، وهذا الاستمتاع الَّذي يجد سعادته في نفسه ، أصبح أولئك الشُّبَّان كأنَّما حقُّهم على المجتمع أن يقدِّم لهم بَغايا لا زَوجات . . . بغايا حتَّى من الزَّوجات . . . !

قبَّحَ الله عصراً يجهل الشَّابُّ فيه : أنَّ الرَّجل والمرأة في الوطن كلمتان تفسِّر الإنسانيَّة إحداهما بالأخرى تفسيراً إنسانيّاً دينيّاً، بالواجبات، والقيود، والأحمال ، لا بالأهواء ، والشَّهوات ، والانطلاق ، كما تفسر الحيوانيَّة الذَّكر ، والأنثى .

والنَّفس الدَّنيئة ، أو المنحطَّة في أخلاقها ، ومَنازِعها من الحياة لا تكون إلا دنيئةً ، أو منحطَّةً في أحلامها ، وأخيلتها الرُّوحيَّة ، دنيئةً كذلك في طاعتها ؛ إن قضت عليها الحياة بموضع الخضوع ، دنيئةً في حكمها ؛ إن قضت لها الحياة بمنزلةٍ من السُّلطة ؛ ولو تنبَّهت الحكومة ؛ لطردت من عملها كلَّ موظفٍ غير متأهِّل[1] ، فإنَّها إنَّما تستعمل شرّاً لا رجلاً يمنع الشر ، وكلُّ شابٍّ تلك حاله هو حادثة تَرتَدف الحوادث ، وتستلزمها ، وما يأتي السُّوءُ إلا بمثله ، أو بأسوأ منه .

* * *

ليس للزَّواج معنىً إلا إقرار طبيعة المرأة في طبيعةٍ ثالثةٍ تقوم بالاثنتين معاً ، وهي طبيعة الشَّعب ، فمن سقوط النَّفس ، ولؤمِها ، ودناءتِها أن يفرَّ الشَّابُّ القويُّ من تَبِعة الرُّجولة ، فلا يحمل ما حمل أبوه من واجبات الإنسانيَّة ، ولا يُقيم لوطنه جانباً من بناء الحياة في نفسه ، وزوجه ، وولده ، بل يذهبُ يجعل حظَّ نفسه فوق نفسه ، وفوق الإنسانيَّة ، والفضيلة ، والوطن جميعاً ، ولا يعرف أنَّ انفلاته من واجبات الزَّواج هو إضعافٌ في طبيعته لمعنى الإخلاص الثَّابت ، والصَّبر الدَّائب ، والعطف الجميل ، في أيِّ أسبابها عَرَضَت .

ومن فُسولة[2] الطَّبع ، ولؤمِه ، ودناءته أن يهرب هذا الجنديُّ من مَيْدانه ؛

---

(١) « غير متأهل » : غير متزوج ، أو مُتَّخذ أهلاً .

(٢) « فسولة » : هي قلَّة المروءة ، وضعف الرأي .

الَّذي فرَضت عليه الطَّبيعة الفاضلة أن يجاهِد فيه ؛ لأداء واجبه الطَّبيعيِّ ، متعلِّلاً لفِراره المخزي بمشقَّة هذا الواجب ، وما عسى أن يعانيَ فيه ، كما يحتجُّ الجبان بخوف الهلاك ، وعَناء الحرب .

ومن سقوط النَّفس أن يرضَى الشُّبَّان كسادَ الفتيات وبَوارَهُن على الوطن ، وأن يتواطؤوا على نبذ هذه الأحمال ، وإلقائها في طرُق الحياة ، وتركها لمقاديرها المجهولة ، كأنَّهم ـ أصلحهم الله ! ـ لا يعلمون : أنَّ ذلك يَضيع بأخواتهم بين الفتيات ، ويضيع بوطنهم في أمَّهات الجيل المقبل ، ويضيع بالفضيلة في تركهم حمايتها ، وتخلِّيهم عن حمل واجباتها ، وهُمومها السَّامية .

إنَّ الجمل إذا اسْتَنْوَق ؛ تخنَّث[١] ، ولان ، وخضع ، ولكنَّه يحمل ؛ وهؤلاء إذا استنوقوا ، تخنَّثوا ، ولانوا ، وخضعوا ، وأبوا أن يحملوا . . .

ومن سقوط النَّفس في الرَّجل النَّكس العاجزِ المقصِّر أن يحتج لعُزوبته بعلمه ، وجهل الفتيات ، أو تمدُّنه وزعمه : أنَّهنَّ لم يبلغنَ مبلغ الأوربيَّة ؛ ولا يدري هذا المنحطُّ النَّفس : أنَّ الزَّواج في معناه الإنسانيِّ الاجتماعيِّ هو الشَّكل الآخر للاقتراع العسكريِّ : كلاهما واجبٌ حتمٌ ، لا يُعتذر منه إلا بأعذارٍ معيَّنة ، وما عداها فجبنٌ ، وسقوطٌ ، وانخذالٌ ، ولعنةٌ على الرُّجولة .

**ومن سقوط النَّفس أن يَغْنَى الشَّابُّ عن الزَّواج لفجوره ، فيقرَّه ، ويمكِّن له ، وكأنَّه لا يعلم : أنَّه بذلكَ يَحْطِم نفسين ؛ ويُحدث جريمتين ، ويجعل نفسه على الدُّنيا لعنتين !**

ومن سقوط النَّفس أن يَغترَّ[٢] الشَّابُّ فتاةً حتى إذا وافق غِرَّتها[٣] ؛ مَكر بها ، وتركها بعد أن يُلبِسَها عارَها الأبديَّ ؛ فما يحمل هذا الشَّابُّ إلا نفس لصٍّ خبيثٍ فاتكٍ . هو أبداً عند من يسرقهم في باب الخسائر ، والنَّكبات ، لا في باب الرِّبح ، والمكسب ، وعند المجتمع في باب الفساد ، والشَّرِّ ، لا في باب المصلحة ، والخير ؛ وعند نفسه في باب الجريمة ، والسَّرقة ، لا في باب العمل ، والشَّرف .

* * *

---

(١) « تخنث » : تثنَّى ، وتكسَّر .

(٢) « يغتر » : يخدع .

(٣) « غرتها » : هي الغفلة في أثناء اليقظة .

**فسقوطُ النَّفس وانحطاطُها هو وحدَه نكبةُ الزَّواج في أصلها ، وفروعها الكثيرة ؛ الَّتي منها المغالاةُ والشَّطط في المهور ، ومنها بحثُ الشَّابِّ عن الزَّوجة الغنيَّة ، وإهمالُ ذاتِ الدِّين ، والأصل الكريم لفقرها ، ومنها ابتغاءُ الزَّوجة رجلًا ذا جاهٍ ، أو ثراءٍ ، وعُزُوفها عن الفاضل ذي الكَفافِ ، أو اليسر على غِنىً في رجولته ، وفضائله ، كأنَّما هو زواج الدِّينار بالسَّبيكةِ ، والسَّبيكة بالدِّينار ، وكأنَّ الطَّبيعة قد ابتُليت هي أيضاً بالسُّقوط ، فأصبحت تعتبِر الغِنَى ، والفقر ، فتجعل في دم أولاد الأغنياء رُوح الذَّهب ، واللؤلؤ ، والماس ، وتُلقي في دم أولاد الفقراء رُوح النُّحاس ، والخشب ، والحجارة . . . على حين أنَّ الجميعَ مُسْتيقِنون ، لا يتدافع اثنان منهم في أنَّ الطَّبيعة لا تبالي إلا بوراثة الآداب ، والطِّباع .**

وأعظم أسباب هذا السُّقوط في رأيي هو ضعف التَّربية الدِّينيَّة في الجنسين ، وخاصَّةَ الشُّبَّان ؛ ظنًّا من النَّاس : أنَّ الدِّينَ شأنٌ زائدٌ على الحياة ، مع أنَّه هو لا غيره نظامُ هذه الحياة ، وقِوامُها في كلِّ ما يتَّصل منها بالنَّفس ؛ وليست المدنيَّة الصَّحيحة ـ كما يحسبُ المفتونون ـ هي نوعَ المعيشة للحياة ، ومادَّتها ، بل نوع العقيدة بالحياة ومعانيها ، وإلى هذا ترمي كلُّ مبادىء الإسلام ، فإنَّ هذا الدِّين القويَّ الإنسانيَّ لا يعبأ بزخارف كهذه ؛ الَّتي تتلبَّسُ بها المدنيَّةُ الأوربية القائمة على الاستمتاع ، وفُنونِ اللَّذاتِ ، وانطلاق الحرِّيَّة بين الجنسين ، فهذا بعينه هو التَّحطيم الإنسانيُّ الَّذي ينتهي بتهدُّم تلك المدنيَّة ، وخَرابها ؛ وإنَّما يعبأ الإسلامُ بالعقيدة ؛ الَّتي تنظِّم الحياةَ تنظيماً صحيحاً ، متساوِقاً ، وافياً بالمنفعة ، قائماً بالفضيلة ، بعيداً من الخلط ، والفوضى .

ويقابلُ ضعف التَّربية الدِّينيَّة مظهرٌ آخرُ هو سببٌ من أكبر أسباب السُّقوط ، وهو ضعف التَّربية الاجتماعيَّة في المدرسة ، وإلى هذا الضَّعف يرجع سببٌ آخر ، هو تخنُّث الطِّباع ، واسترسالها إلى الدَّعة ، والرَّاحة ، وفرارُها من حمل التَّبعة « المسؤوليَّة » الَّتي هي دائماً أساس كلِّ شخصيةٍ قائمةٍ في موضعها الاجتماعيِّ .

وبذلك الضَّعف ، وذلك السُّقوط وُضعت المرأة البغيُّ العاهرةُ في الموضع الطَّبيعيِّ للأم . ونزل الرجلُ السَّافل المنحطُّ في المكان الطَّبيعيِّ للأب ، وتحلَّلت قُوى الوطن بانحراف عُنصريه العظيمين عن طبيعتهما ، وجَعلت فضيلة الفتيات المسكيناتِ تتآكلُ من طول ما أُهمِلتْ ، وأخذ سُوس الدَّم يتركها فضائل نخِرةً .

ولا عاصم ، ولا دافع إلا قوَّةُ القانون ، وسطوته ، ما دامت الفضيلةُ في حكم النَّاس وتصريفهم قد تركت مكانها للقوانين ، وما دامت قوَّةُ النَّفس قد أَخْلَتْ موضعَها للقوَّة التَّنفيذيَّة .

لقد قتِلت رُوحية الزَّواج ، وهي على كلِّ حالٍ جريمة قتلٍ ، فمن القاتلُ يا صاحبنا المحامي ؟ !

قال الشَّابُّ : هو كلُّ رجلٍ عَزَبٍ .

قلت : فما عقابُه ؟

فسكتَ ، ولم يَرْجع إليَّ جواباً .

قلت : كأنِّي بك قد تأهَّلتَ ، وخَلاكَ ذمٌّ[1] . . . فما عقابُه ؟

قال : إلى أن تبلغ الحكومة أو أن تعاقب هؤلاء العزَّاب ، فليعاقبْهم الشَّعب بتسميتهم : « أرامل الحكومة » . واحدُهم : رجلٌ أرملةُ حكومةٍ . . .

ثمَّ قال : اللهم يَسِّرْها ، ولا تجعلني رجلاً بغلطتين : غلطةٍ في نساء الأمَّة ، وغلطةٍ في ألفاظ اللُّغة .

* * *

(١) « خلاك ذم » : برئتَ من الذم والعيب .